تغريبة بني شعبان !

قصة : د. سيد شعبان

هـا هي الأيـام انطوت بـكل مافيهـا، يتبقى منهـا الحكي الذي لابـد منه عن رجل كان ملء السـمع والبصر، عركته خطوب الحياة، تنظره فإذا تجاعيد وجه سـطور صفحات يقرأها كل من عرفه أو كد مثله في البلاد بدء من كفر المنسي أبوقتب ومرورا بالبـراري والحامول، وانتهاء بالصحراء وشـظف العيش فيهـا حتى أحالها أرضـا تطعم من ضرب بمعوله فيها.

لم تكن حياته غير سيرة حق لها أن تروى، وما كان للذئب إلا أن يتلبس ثياب الحمل الوديع، انتهب أوراقه التي خطها بمداد الـدم، قطرات عرقه التي تعصر منهـا ثيابه في قيظ بؤونـة الحجـر أو أجولة الخيـش في طوبة حيـث الريح تدوي، يدثر بها صغاره، بناته هن رفيقاته في صراع لقمة العيش، تستطيع أن تبصر الواحدة منهن رجلا يعضده أو ردءا يكافئه، مضت أيامه بين حلو ومر، يتصبر بقليل الزاد يزهد فيه ليطعم أفراخا زغب الحواصل، يخنس كبيره في جحـره فلا يريم غير الخيبة في إثر أختها، ينكسـر قلبه إذ لداته من الناجحين في كل شـيء، لاتثنيه هموم أب انحنى ظهره وما كان إلا رجلا صلب المراس، مطعمه من كد يده.

مـاذا يسـطر السـارد غير آهة حـرى وزفرة مكلـوم، عن معاناة مضت عليها خمس وخمسون سنة يوم ولد، تشهد أنه خـرج دون باب لـدار غير كراء لايصلـح لغير الدجاج يأوي إليه من بنات عرس، تسرق أوراقه وتدلس بيد خيبة عمره، فيعيـد الكرة على إخوته ينتهب مـال أبيه ولحمالة الحطـب الـدار في تلمظ أفعـى وانتهاش لايـدع غير الحقد والكراهية سما زعافا ورثه بنيه.

أتلوم الأب فترنو بعينيك معاتبا؟

تسأله: لم لخيبة عمرك الورق والدار؟

أيجيبـك خدعنـي، لبنيـك أم لحمالـة الحطـب، وقـد كان مدخلها من عتبة الدار خرابا؟

عرفـت أضابير المحاكم دعـاوي تنظرها، منتديات القوم تلوك سـيرته يدعى براءة الجب ملقى فيه يوسف وأخوه، غيـر أن إخوتهمـا مافعلـوا دنيئته وما اجترحـوا جنايته، يزهـو بما ابتاعته منـه حمالة الحطب غيـر مرعو من يوم تقضى فيه الدعاوى أمام القاضي الذي لاينقض حكمه.

هـذه صفحة تكتـب والدمع هتان، ألا تجد لـك دارا ينخلع جـذرك عنـوة بيـد الزيـف والضـلال، يسـتدعي عليهم يد السـلطة فـي تنفيذ حكـم باطـل أثبتت المحكمـة صوريته، مأسـاة تتكرر بيـد مجرم الحرب نـتن ياهو قومـه، تخاله وديعا لكن واقعه شـيطان سـرق وانتهب الدار منذ ثلاثين عاما.

تحمل عصا الترحال فلا تلقيها في أرض الله الواسعة إلا وتخطو تحمل عبء الزمن فوق كاهلك.

كثيـرة هي الأحـداث في رحلـة الآلام تلك، لا بلـدا لك وقد صمـت أهلها أن يمنعوه عن زيفه، ولا آله إذ جبنوا خانعين ليشـهدوا مـآل الواقعة فرحـين، وقد كتب السـارد عن كفر المنسي أبو قتب ما عرف به بين الأبيناء في أرض الله بأنه منتزه الحالمين أو مفتخـر الذين انتموا، وما خط كان خيط العنكبوت واهنا، وخديعة كبرى.

لا أحد يلوم مكلوما في داره شـهدت مرابع طفولته، أحقا ماعاد له من النيل ضفته، تتراقص الأحلام في مخيلة فتى رسـم بقلمه لوحة جميلـة، نظل أطفالا ما كانـت لنا أمهات يهدهدن ترانيم المهد.

جهـد السـارد ألا يسـطر كلمـة فيتكتم دمعه ويحبسـها زفرات، عادت الدار تنوح على ساكنها من يذكر غثاء الشاة وخوار البقرة ما عاد يسمع للحمام فيها هديل.

أتسـكنها الغربان تنعق فيها حمالة الحطب وبنوها وقد جاءت بهم أشأم عاد.

تلك صفحة كتبت وحكاية يقرأها من ألقى السـمع أو شهد أحداثهـا من كانوا سـعاة في الخبـر، مات فـارس نبيل له صـدق عمل، تتمنطق حمالة الحطب ترغـي وتزبد فيتناثر القيح من شدقيها، تنظرها تخرج الخبث.

معاذ الحق أن تسـطر كلمة في غير وجهتها، هذه سـطور تسـجل الجموع القراء، برئت ذمة السـارد من تدليس قلم جعله يكتب ما ينفث به عن ثقل نفسه وانقباض قلبه.

تغريبة تروى على الربابة أتقول صورة من تغريبة بني هـلال فـي الزمن البعيـد، أو هي تغريبة شـعب مكلوم منذ سبعين عاما، تتشابه الملامح في الألم وتفترق في العدد.

غير أن المأساة أنها بنصل ولد ضال.